

الفصل الثاني

أوصاف الجنة في العالم الآخر

وصف القرآن الكريم مشاهد العالم الآخر، وصفاً مجسماً في صور حسية بصرية، واهتم كذلك بالصور المعنوية وأولاهها عناية خاصة، فكانت الصور موحية بمعاني النعيم الذي يغمر نفوس الفائزين، لتبقى الصورة قائمة في الأذهان؛ لذا عمد الوصف القرآني إلى تشخيص ما يجري في ذلك اليوم مرة، ووصف ما يصير الإنسان إليه مرة ثانية، وعرض صور النعيم مرة ثالثة. وبسبب من هذا الوصف يتخيل المطالع في وصف القرآن للعالم الآخروي الرضي عالماً فسيحاً حياً، في جنان نضرة، وأفنان وارفة، ويلاحظ كذلك مؤمناً يتلذذ سارحاً بين الرياض أو متكئاً على وثير الأرائك، ويظهر للباحث أن جلّ اعتماد بيان القرآن يقوم على الصورة البيانية الملائمة، والحركية الحية، واللونية المظهرة، والتي تكوّن مجتمعة مشاهد ذلك العالم، وهي سبيل القرآن دوماً إلى إبراز المعاني المعنوية متخيلة محسوسة، تبصرها العين، وتقرّ برؤياها... لتكون وسائل إثارة تستحث الخطا إلى الفوز بها.

١

أبرزت آيات وصف الجنة في القرآن الجنة رياضاً غانية، فيها مساكن طيبة، وأشجار ندية، الأغصان مثمرة الأفنان، عديدة الطعوم والألوان، تتدفق خلال أنهار غزار، سائغة الطعوم...، وفي هذا الجوّ الطبيعي الأسر العابق بالحيوية والسرور يظهر العنصر الإنساني، يُبعث في الصورة الواقعية المألوفة، التي كان الإنسان يعيشها في حياته الدنيا، ذلك كله لتساعد آيات وصف الجنة الإنسان

على تخيل وإدراك طرف من نعيم أخراه... واعتنى الوصف القرآني بالحياة النفسية للمؤمنين حيث تغمرهم مظاهر الإكرام، فهم في نعيم مستديم، لا يمسه نصب يفسد سرورهم أو يشغلهم همٌّ يورق أجفانهم، إنما أكلٌ دائم، وهناءة خالدة.

على هذا النحو أظهر الوصف الجنة، وجعل صورتها تتكامل من مجموع آيات مبثوثة في سور القرآن.

ففي سورة «محمّد» وصفت الجنة وصفاً يتناول عنصراً واحداً بصورة رئيسية، وقد أسهت الآيات الكريمة في وصف أنهار الجنة بالكثرة وبالطعم المستساغ، والماء الفرات، وأنهار اللبن اللذيذة، وخمر لا يفسد العقول، مصفى من الشوائب أو فلا شوائب فيه^(١) وتشير الآية عينها إلى الثمرات في تلك الجنة إشارة سريعة، هذه الثمرات الكثيرة التي سمع بها الإنسان في حياته. وللمؤمن في هذه الجنة كذلك نعيم ومغفرة... ثلاثة عناصر تظهر في وصف سريع للجنة، الماء وما يشابهه من سائغ الشراب، والأثمار التي تحار في بهائها وطعومها الألباب، وما يتركه هذان العنصران من النعيم النفسي والسرور المعنوي. قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنَ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

وفي سورة النحل يظهر وصف جنات الخلد وصفاً مكثفاً جداً، لكنه مع ذلك موح، حيث يستخدم الوصف الكلمة الموحية ويفجر طاقاتها التعبيرية، مما يفسح أمام خيال القارئ مجالاً ينطلق فيه، يتأمل آفاق تلك الصورة، وهذا الوصف، ثم يجمع بعد ذلك جزئيات وصفية من هنا وهناك ليرتسم منها المشهد.

فإذا الجنات دائمة الخضرة، ثرة الأنهار، للمؤمن فيها ما شاءت نفسه^(٢)

(١) تفسير النسفي ٤٠/٥.

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري ١٦٣/٣.

قال تعالى: ﴿ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣١].

ويرد الوصف أحياناً أكثر عمومية حين يشير إلى الجنة الوسيعة. قال تعالى: ﴿ وَجَنَّتُ عَرْشَهَا السَّمَاءُ وَلِأَرْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] فهذا «تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبدية إلى ما يعلم، وفي ذلك البيان العجيب بما قد تقرر في النفس من الأمور والتشويق إلى الجنة بحسن الصنعة مع ما لها من السعة»^(١).

ومن أكثف الصور الوصفية التي صورت بها الجنة ما جاء في سورة الأنعام ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٢٧] تلك الدار هي الجنة الهادئة الرضية، وأورد الشريف الرضي هذه الصورة في «تلخيص البيان» على أنها استعارة «والمراد: لهم محل الأمن والسلام والمنجاة من المخافة وتلك صفة الجنة»^(٢).

إذا كان تعريف البلاغة «مطابقة الكلام لمقتضى الحال» فذاك ما كان مأخوذاً من القرآن أو منطبقاً عليه أشد التطابق. فالوصف قد يرد مكشفاً موحياً، وقد يرد كثير الجزئيات التي تشكل مادة بناء فني لصورة رائعة عامرة بالحياة؛ ففي سورة الصف توصف الجنة على نحو جديد، أو تظهر الآيات جانباً من الجنة، ليكون عنصراً متمماً للصورة التي يتوخاها بيان القرآن، فالمساكن الطيبة في جنات عدن عنصر هام من عناصر الجنة ورد بأساليب متعددة. قال تعالى: ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَيُكَرُّ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الصف: ١٢]. وفي سورة الزمر تظهر المساكن غراًفاً تعلوها غرف^(٣)، تتلوى عبرها الأنهر الرقراق التي تزيدها جمالاً وبهاءً، وحسناً وثناءً، كناية عن الإكرام وحسن الوفادة. قال تعالى: ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا لَهُمْ هُمْ عُرُفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرُفٌ مَّيْنَةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيثَاقَ ﴾ [الزمر: ٢٠].

(١) النكت في إعجاز القرآن للرماني في كتاب «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن» ص:

(٢) «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي ص: ٤.

(٣) تفسير النسفي ٤/٣١٨.

في سورة النبأ يصف القرآن الجنة ويكثر من إيراد الجزئيات المادية التي تسم الوصف بالواقعية، وتجعل السامع يستبدل مفردات الوصف بمفردات حياته، فتظهر الجنة بحدائقها وأغابها، وكواعبها الأتراب، والكأس الدهاق، ذلك ما يجعل الصورة تغتنى في ذهن القارئ المتأمل شيئاً فشيئاً. قال تعالى:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۖ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۚ وَكَوَاعِبَ أَزْوَاجًا ۚ وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٤].

ولجأ وصف القرآن إلى طريقة جديدة تقوم على الازدواجية في الصورة وطريقة عرضها، متعينة بالكناية وقدرتها على التشخيص والإيحاء؛ ففي سورة الرحمن يتحدث تعالى عن الجنتين ذواتي الأفنان، ويشير بعد وصفه لهما إلى جنتين أخريين «سوداوين من شدة الخضرة»^(١) «فيهما عينان نضاختان: فوارتان بالماء لا تنقطعان»^(٢)، وهاتان الجنتان مليتان بالفواكه. بهذه الكيفية من الوصف توصف الجنة بأوصاف جديدة دقيقة، تجعل الجنة شاخصة أمام خيالنا يتملأها، ويسبح في رياضها الغناء مستعراً جمالها وبهاءها. قال تعالى:

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۚ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ مُدْهَاتَانِ ۚ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ۚ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرِيَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٢-٦٨].

تعاقبت في سورة الرحمن آيات كثيرات تصف الجنة، بحيث يوصل مجموعها إلى صورة واضحة محددة الإطار، وافرة الأجزاء، عامرة الأرجاء، فيها الأفنان والعيون الجارية، والفواكه المعروفة وغير المعروفة^(٤) في دنيا الإنسان، وفيها فرش بطائنها من إستبرق بلّغَ ظواهرها، ومن الظواهر الوصفية في هذه السورة: انفصال الآيات الوصفية عن بعضها بوساطة آية ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٤٧] وتوشك هذه الآية المعترضة بين آي السورة، أن تكون وسيلة فنية تمهل السامع ليتأمل الآية السابقة ويتخيل ما تصوره، فالجنتان

(١) تفسير النفي ١٢٣/٥ وقال الخليل: الدهمة: السواد.

(٢) تفسير النفي ١٣٤/٥.

(٣) وردت في ١٣٤/٥ في تفسير الإمام النفي تفصيلات حول التمر والرمان.

(٤) تفسير النفي ١٣٢/٥.

اللتان تصفهما سورة الرحمن ذواتا أفنان^(١) طويلة، تطرح ظللاً ندية مستديمة، تضم تحتها عناصر أخرى طبيعية وإنسانية. قال تعالى في سورة الرحمن:

﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ ﴿٤١﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَآ تُكَذِّبُونَ ۖ ﴿٤٢﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۖ ﴿٤٣﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَآ تُكَذِّبُونَ ۖ ﴿٤٤﴾ فِيهَا عِشَانٌ تَجْرِيانِ ۖ ﴿٤٥﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَآ تُكَذِّبُونَ ۖ ﴿٤٦﴾ فِيهَا مِن كُلِّ فَرْكَةٍ رَّوْجَانِ ۖ ﴿٤٧﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَآ تُكَذِّبُونَ ۖ ﴿٤٨﴾ مُّكْهِنِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنۢ إِسْتَرْقٍ وَحَنَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۖ ﴿٤٩﴾﴾

[الرحمن: ٤٦-٥٤].

أشار الدكتور صبحي الصالح وهو يتحدث عن العلاقة بين الوصف الأدبي والموسيقى إلى ما لاحظته في سورة الرحمن من وجود ظاهرة خاصة تفردت بها من بين سور القرآن؛ هي ظاهرة الثنية وما تستتبعه من الازدواج والتقابل صورةً ووصفاً وأسلوباً وموسيقاً، قال: «والنسق الملحوظ في سورة الرحمن هو ظاهرة الثنية وما تستتبعه من الازدواج والتقابل، تصريحاً وتلويحاً، وترجعه في أرجاء السموات والأرض من أصداء مدوية رهيبة، وقارئ هذه السورة أو سامعها يشعر هذا ولو لم يملك التعبير عنه، فما كانت أمارات الثنية لتخفى عليه في كثير من أفعال السورة وأسمائها وضمائرها، ولا في كثير مما ورد فيها من تقابل بين شيئين صريحين، ولا فيما اختير لألفاظ منها مفردة، أو مجموعة من صيغ المثنيات؛ لزيادة الإيقاع بمدّ الصوت وترجيع صده، وإطلاق الرنين إلى أقصى مداه.

وحسب العربي الذواق للبيان الرفيع أن يتمثل - وهو يرتل سورة الرحمن كلما طرقت سمعه - لازمتها الإيقاعية ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ بصيغتها المثناة الموجهة إلى الثقلين الإنس والجن:

ثم حسبه أن يقابل هذه اللازمة بمطلع السورة «الرحمن» المتهي بالالف والنون على ما يشبه صيغة الثنية، لا «بالرحيم» مثلاً أو بأي اسم آخر من أسماء الله الحسنى يناسب ما يمتثل به الله على الوجود كله من آلائه ونعمه، وجلاله وكرمه، حسبه هذا وذاك ليشهد على أذنه أنه يستمع لدى مفتتح السورة

(١) تفسير «الكشاف» للزمخشري ١٥٥/٣

وفي أثنائها حتى ختامها ألحانا من نوع فذ فريد، تنزلت من فوق العرش بأسلوب ملحوظ مقصود^(١).

حرص القرآن على إظهار الصورة متكاملة للجنة فوصف قاصرات الطرف^(٢) وهن يشبهن الياقوت والمرجان مرة، واللؤلؤ المكنون الصافي مرة أخرى، وهذا الوصف يجعل الصورة واضحة حية تساعد الخيال على تصوّر العالم الآخر، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ قَاصِرَاتِ الطَّرَفِ لَنَ يُطِئُنَّ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٦٦﴾ فَيَأْتِيَهُنَّ الْآلَاءُ رِيكًا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨-٥٦].

وفي السورة ذاتها تظهر للحوار العين صفة أخرى؛ فقاصرات الطرف أنفسهنَّ يُشَبِّهْنَ اللُّؤْلُؤَ الْمَكْنُونِ الرطب، كناية عن شدة بياضه، وتوشك أن تكون صورتهم صورة لونية محببة، قال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٦٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣]. ومرة ثالثة في السورة عينها توصف الحوار العين بأنهنَّ حِسانٌ مقصوراتٌ في الخيام، ويكتمل المشهد في الجنة ذات النعيم الناعم الذي لا يدانيه جمال وبهاء، ثم يكون هناك المؤمنون، وهم يُشَاهَدُونَ متكئين على الرفرف الخضر، كناية عن هدوء الضمير وراحة الشعور^(٣) بنعيم الفوز، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ حِسانٍ ﴿٦٧﴾ فَيَأْتِيَهُنَّ الْآلَاءُ رِيكًا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٨﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٦٩﴾ فَيَأْتِيَهُنَّ الْآلَاءُ رِيكًا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٠﴾ لَنَ يُطِئُنَّ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧١﴾ فَيَأْتِيَهُنَّ الْآلَاءُ رِيكًا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٢﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ حِسانٍ﴾ [الرحمن: ٧٠-٧٦].

وأخيراً تظهر صورة الجنة في سورة الرعد رياضاً واسعة يتدفق عليها المؤمنون أفواجا، تعقبهم ملائكة كثيرون يدخلون عليهم من كل باب مستبشرين مهللين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عِشْقُ الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا

(١) محاضرات في الفنون والمدارس الأدبية للأستاذ الدكتور صبحي الصالح. كلية الآداب بجامعة دمشق - العام الجامعي (١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م).

(٢) القاصرات: «نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم» الكشف ٤٩/٤.

(٣) تفسير السفي ١٣٤/٥.

وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿الرعد: ٢٢-٢٣﴾.

ولا تلبث ظلال الجنة أن تدنوا من أهلها تحنو عليهم حنو المرضعات على الفطيم، فقطوفها متدلية، ميسورة ذليلة، يأخذها الإنسان دونما جهد، بهذه الخفة في الصورة والتركيز على الجزئيات الهامة يبرز وصف الجنة حياً شاخصاً. قال تعالى: ﴿وَدَائِئَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

ويختتم الوصف القرآني تصوير الجنة وتجسيدها فيشير إلى مدة زمنية مديدة متواصلة يستمر خلالها رزق المؤمنين متتالياً كما لا يسمعون فيها «فضول الكلام إلا دعاء السلامة»^(١)، والاطمئنان والهدوء. قال تعالى - وهو يصف الجنة وقد ارتسمت ملامحها في أذهاننا -: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [١٦] ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٢-٦٣].

وهكذا يتكون من مجموع أوصاف الجنة المنشورة في القرآن صورة متكاملة، تسري الحياة بين أعطافها، يتخللها الإنسان، ويرى أشجارها الخضراء النضرة، وأفنانها الطويلة الظليلة، وفواكهها الكثيرة اللذيذة، وأنهارها المتدفقة الغزيرة، والفرش والأرائك الوفيرة، والحدائق والقصائر الطرف، اللائي يتمنن إيطارها، والهدوء النفسي الذي يخالط النفوس فيغرقها في نعيم مستديم مقيم لا يبارحها.

٢- وَصْفُ أَهْلِ الْجَنَّةِ

وصف القرآن الكريم المؤمنين في الجنة وصفاً بيانياً حياً، بحيث أظهرهم هذا الوصف وهم يتقلون في رياض الجنة، أو يتلذذون نعيمها، أو يعودون بذكراهم إلى الحياة الدنيا، أو يصفهم وهم يتحاورون ويتوجهون إلى الله يشكرونه، وكانت الصورة البيانية وسيلة هذا الوصف الأولى: ففي سورة التحريم تُعرض صورة المؤمنين، تتقدم أنبياءهم وينطلق نورهم يسعى أمامهم

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ٢٢٩/٣.

مسرعاً، وكأنه يتعقب ظلاماً^(١)، على هذا النحو أسهمت الصورة البيانية التي جتدت النور، وأطلقت يسهى^(٢) في إبراز مشهد المؤمنين وهم متجهون نحو الجنة. قال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ يَدَيْهِمْ وَأَيِّمَنِهم﴾ [التحریم: ٨].

والوصف في القرآن وسيلة فنية هامة تستخدم لتبرز الجوانب الهامة من مواقف الإنسان، وكذا كان في سورة الحاقة، حين وُصف المؤمن في أعتاب الجنة، وقد أخذ كتابه بيمينه، وقد استخفه الفرح وأنطق حَجَرَتُهُ ليقول: هاؤم اقرؤوا كتابيه! ويقول إذ ذاك: إني كنت موقناً في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة^(٣). «وتصف الآية هذا المؤمن في مآله إلى عيش هنئ مُرَضٍّ في جنة عالية، رفيعة قصورها، حسانِ حورُها، نعيمة دورها، دائم حبورها»^(٤).

ويكتمل المشهد الوصفي المكثف حين تشير الآيات الوصفية إلى القطفوف الدانية، القريب تناولها، ويقال لهم: كلوا واشربوا بما أسلفتم في الأيام الخالية تفضلاً عليهم، وامتناناً وإنعاماً وإحساناً. قال تعالى في الحاقة - بعد أن عُرض طرف من مواقف الحشر -: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتِبُهُ يُسَمِّنُهُ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْثَرُ﴾ (١٩) ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبَاءَ﴾ (٢٠) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٢١) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (٢٢) ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ (٢٣) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِيَةِ﴾ (٢٤) [الحاقة: ١٩-٢٤].

ويتابع بيان القرآن المؤمنين بعد أن تسلّموا كتبهم، ليصفهم وهم على

(١) تفسير ابن كثير ٣٠٩/٤.

(٢) وردت استعارة مماثلة في سورة الحديد ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم...﴾ وأشار إلى ذلك الشريف الرضي حيث قال: «وهذه استعارة على أحد التأولين، وهو أن يكون إيمانهم في القيامة هادياً لهم ومطوّراً بين أيديهم وواصلًا لأجنتهم، فجرى مجرى النور الهادي في طريقهم، بمعنى أنهم يسعون إلى الموقف غير عائرين ولا متععين، ولا مخوفين ولا مروعين كما يكون غيرهم من لا إيمان له ولا هدى معه، فكأنهم لكونهم على تلك الحالة يسرون بدليل مكنون إلى دلالة، وفي ضياء موثوق بهدايته». تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ص: ٣٤١.

(٣) تفسير القرآن الكريم لابن كثير ٤١٥/٤.

(٤) ظنت بمعنى علمت. كما جاء في تفسير النفي ص: ٢٥١.

أبواب الجنة، تساق مراكبهم إلى الجنة - زيادة في الإكرام - التي سرعان ما تفتح لهم أبوابها، ويستقبلهم الملائكة مبشرين «لقد طبت من دنس المعاصي، وطهرتُم من خبث الخطأ، فادخلوا الجنة، ولكم حرية التصرف فأنتم الوارثون لها»^(١).

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: ٧٣-٧٤].

ويستمر وصف الموكب، الموكب الذي انطلق من ساحة الحساب إلى مكان الثواب، تحفه العناية والرحمة، وتغمره البهجة، ثم ينطلق صوت البشري ﴿أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فتطرب لسماعه الآذان، وتهش النفوس، هكذا يكون سبيل الوصف القرآني ينقل المعنى نقلاً موحياً ليكتمل بذلك إطار الوصف، وتتضح أبعاد المشهد وعناصره. وأورد الشريف الرضي في «مجازات القرآن» أنه في هذه الآية الكريمة «استعارة خفية، وذلك أن حقيقة الميراث في الشرع هو ما انتقل إلى إنسان عن ملك غيره بعد موته على وجه الاستحقاق، وليس يصبح في إيراث الجنة مثل هذا المعنى؛ لأن الجنة لا يسكنها قوم بعد سكنى قوم قد فارقوها، وانتقلوا عنها، فقولُه تعالى: ﴿أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ على الأصل الذي قدمت - استعارة أن هؤلاء المؤمنين لما عملوا في دار الدنيا أعمالاً استحقوا عليها الجزاء والثواب، ولم يصح أن يُورَّعَهُمْ ذلك إلا في الجنة وهي من الدار الآخرة، فكانهم استحقوا دخولها، فحسن من هذا الوجه أن يوصفوا بأنهم أورثوها، وإن لم يكن سكناهم لها بعد سكن قوم آخرين»^(٢).

ونلاحظ هذه الاستعارة البديعة التي جعلت من الجنة حقاً للمؤمنين وكأنها إرث لهم؛ فهؤلاء المؤمنون استحقوا الجنة بأعمالهم كما يستحق الوارث ورثته.

(١) الكشف ٣/ ٣٥ وانظر النكت في إعجاز القرآن للرماني ص: ٧٠ - ٧١ في كتاب «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن».

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ص: ٤٤ - ٤٥.

ولاحظ الرماني* أن هناك صلة بين الصورة التي تتركها هذه الاستعارة في آية ﴿وسيق الذين﴾ وبين عناصر الحس المختلفة، من حيث إثارة العواطف والانفعالات عن طريق مخاطبة الحواس. وظهر تعليله لدور الصور الربطية في القرآن حين قال في تحليل جمال الإيجاز في قوله تعالى: ﴿وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] قال: «كأنه قد حصل لهم على النعيم المقيم الذي لا يشوبه التنفيس والتكدير... وإنما صار الحذف في هذا أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب فيه كل مذهب، فالقرآن عدد بعض صور النعيم، وترك للخيال أن يعدد ما يشاء اعتماداً على الصور الربطية»^(١).

أما في سور «يس»: يظهر المؤمنون سعداء وهم مشغولون بالنعيم، يتفيؤون ظلاله، يجلسون على الأرائك^(٢)، تتدلى عليهم قطوف الجنة ويكون لهم ما تشتهي النفس. إن هذا الوصف البياني يرسم الإطار العام لحياة أهل الجنة، وفي آيات أخرى تأتي جزئيات عديدة تسهم في تحديد ملامح الصورة، وتستخدم صيغاً يضيف عليها التكثير والإطلاق قدرة على الإحياء والتأثير. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَنِكُهُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِهِونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَنَكُهُةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ [يس: ٥٥-٥٦].

كما يلاحظ أن ذكر الأرائك يتكرر في وصف القرآن للمؤمنين، وهذا مظهر من المظاهر التي يتلازم ذكرها في وصف الجنة، وتستثمر على أنها عنصر بياني يصف آثار النعيم والإكرام على وجوه المؤمنين، وكفي تجسد هذه الصورة تلك

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي: الدكتور محمد زغلول سلام ص: ٣٦٩ - ٣٧٠.

(٢) تفسير النفي ٢٤٨/٤.

* أحمد بن علي بن محمد أبو عبد الله الرماني النحوي المعروف بابن الشرايبي توفي يوم الجمعة ليومين قضيا من ربيع الآخرة سنة ٤١٥ هـ. ذكره أبو قاسم وأبو الفرج وكثير من التابعين ونقلوا عنه الأحاديث الكثيرة. معجم الأدباء - ياقوت الحموي ج- ٢٧٠/٣ - دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان.

الحقيقة يتحول السرور والانشراح إلى نظرة موحية تطفح على الوجه بشراً ونضارة يُعرف المؤمنون بها. وما النعيم إلا أثر معنوي نفسي يدركه الإنسان في أعماق ذاته، حتى النعيم في وصف القرآن أشبه ما يكون ببحر متسع، وهامهم أولاء المؤمنون فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٢٢-٢٤].

وفي سورة الدخان يُظهر الوصف جانباً هاماً في حياة أهل الجنة، ذلك هو النعيم النفسي الذي يغمر المتقين، فلا هم ولا حزن ولا جزع، ولا تعب أو نصب^(١)، ولا يهمل الوصف المظاهر المادية التي توحى من نحو أو آخر بما يعتمل في النفوس، إن ما يلبسه المتقون إنما هو من رفيع الحرير، وفيه بريق وله لمعان وهم متقابلون على السرر ويكسب الوصف للجنة الصفة الواقعية عندما يشير إلى الحور اللاتي وصفهن بأنهن عین، كما أن الأشجار مُحَمَّلَةٌ أفنانها بما يطلب من أنواع الثمر. هذا الوصف التفصيلي يكسب المعنى نفحة خيالية تجعله واضحاً مشخّصاً حياً متحركاً، فكل آية، بل كل كلمة تتضافر لإبراز الصورة وإظهار معالمها، يبدو ذلك جلياً حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الدخان: ٥١-٥٥].

وفي سورة الإنسان يرد وصف مطول جداً يبين صور النعيم فيها بإسهاب، ويلجأ على ذكر عناصر مادية بسيطة لكنها ذات دور عظيم في إغناء الصورة، وهي في الوقت عينه عناصر التنعيم من أرائك وثيرة، وظل ظليل، وفواكه دانية القطوف، مذلة الأغصان، وبين الفينة والفينة يطاف على المؤمنين بأكواب من فضة قُدِّرَتْ للكف وعلى قدر الري، ويُمزج لهم شرابهم بالكافور البارد تارة، وبالزنجبيل تارة أخرى، ويشربون ثلاثة من عين وُصفت بالسلسيل. قال عكرمة: «سلسيل: اسم عين في الجنة، وقال مجاهد: سميت بذلك لسلامة

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/١٤٦.

سيلها وحِدَّة جريانها، وحكى ابن جرير عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستها في الحلق^(١)، ولكن آثرت الصورة في القرآن أن تكون حية على الدوام خالدة توحى بمعاني لا نهاية لها . . .

ويبرز عنصر جديد في وصف نعيم أهل الجنة، يتمم الصورة ويجعلها مليئة بالبهجة والواقعية، فالرياض الخضر، والظلال الندية، والمناظر المرحية تحتاج أطفالاً يَمُورون حركة وحيوية، يزدون جمال الطبيعة جمالاً . . . وفي وصف القرآن تظهر الأطفال المخلَّدون وهم كثر، صبيحو الوجوه، كأنهم اللؤلؤ المنثور، وإذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم، وحسن ألوانهم، وثيابهم وحليهم - حببتهم لؤلؤاً منثوراً، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور. ولا يفوت الوصف القرآني أن يصف ما يرتديه أهل الجنة من ثياب سندسية خضر، ثم يعود بِأَخْرة إلى وصف الشراب الطهور الذي يكون من مظاهر الإكرام.

قال تعالى يصف المؤمنين: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۖ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ أَطْوَافُهَا نَدِيلًا ۚ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۚ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُهَا نَقِيرًا ۚ وَسُقُونَ فِيهَا كَأْسًا ۚ كَانَ رِزَاقُهَا رِزْقًا مُّسَيَّلًا ۚ وَسَيَّلًا ۚ وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ ۚ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُؤًا مَنْثُورًا ۚ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۚ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۚ وَحُلُوفٌ أُسَاوِرٌ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمْ رُبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾^(٢) [الإنسان: ١٣-٢١].

- (١) تفسير القرآن الكريم لابن كثير ٤/٥٥٦.
- * محمد بن جرير بن زيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري المحدث الفقيه المؤرخ المقرئ المعروف المشهور توفي سنة ٣١٠ هـ ولد سنة ٢٢٤ أو ٢٢٥ هـ، حدث عنه كثيرون أشهرهم محمد بن عبد الله استوطن بغداد وأقام فيها إلى حين وفاته وكان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه، وكان حافظاً لكتاب الله عز وجل عارفاً بالقرآن بصيراً بالمعاني فقيهاً بأحكام القرآن عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم. معجم الأدباء ياقوت الحموي ج/١٨ ص: ٤١/٤٠.
- (٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٥٥٦ - ٥٥٧.

ويرتسم المشهد كاملاً للمقربين الأولين، وللأبرار أصحاب اليمين، حيث يبدو المشهد غنياً بعناصره، فتوصف الشرر بأنها مرمولة بالذهب واللؤلؤ، ووجوه المقربين بعضهم إلى بعض، يتنقل بينهم أولاد مُخلَّدون على صفة واحدة، وهم يحملون الكيزان والكؤوس يأخذون من عين جارية، فيشربون ويشربون، فلا تتصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هي ثابتة في الشدة المطربة، واللذة الحاصلة، ويصف القرآن مزيداً من إكرام هؤلاء، فيطاف عليهم بفواكه مما يتخيرون، ويقدم لهم لحم الطير، مما تشتبهه النفس... ثم تكتمل الصورة الحية بعنصر جديد هو الحور العين، وكأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه^(١). . . كذلك يصف بيان القرآن مجالس الجنة نقية من العبث واللهو واللغو. . . قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾^(٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُوعَةٍ﴾^(٤) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِّمِينَ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾^(٥) يَأْكُوبُ وَأُيَاقُ وَيُفَارِقُ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾^(٦) وَفَكَهَمُوا مِمَّا انتَحَرْتُمْ ﴿وَلَمْ يَطْمِئِنْهُمْ بَشَرٌ مِمَّا نَشْتَبُونَ﴾^(٧) وَحُورٌ عِينٌ ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوفِ الْأَخْضَرِ﴾^(٨) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾^(٩) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿[الواقعة: ٢٦-١١].

وفي السورة عينها، يوصف الأبرار في مشهد آخر لا يقل غنى عن مشهد المقربين، والمشهد هنا يُصوّر من خلال الكلمات الوصفية فنلاحظ أن أوصافاً عديدة متلاحقة تكون مادة إكرام أصحاب اليمين، فهم مكرمون هادئون، فلا منغصات، وعبر القرآن عن هذا بمعنى حسي يدركه المتأمل، فالطلع منضود، والظل ممدود، والماء مكوب، والفاكهة كثيرة، لا تنقطع، ولا تمتنع عن الغلال^(١٠).

أما جزئيات الوصف الذي يتناول أهل الجنة فإنه يسهم كذلك في إيضاح الوصف الفني، فالفرش المرفوعة ناعمة، كل أولئك إكراماً لأهل اليمين. قال

(١) تفسير النسفي ١٣٧/٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٨٨/٤.

تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿ ٢٨ ﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿ ٢٩ ﴾ وَظُلُجٍ مَّدْهُودٍ ﴿ ٣٠ ﴾ وَمَالٍ مَّسْكُوبٍ ﴿ ٣١ ﴾ وَفَكَهْفٍ عَمِيْقٍ ﴿ ٣٢ ﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿ ٣٣ ﴾ وَفُرُشٍ مَّرْقُوعَةٍ ﴿ ٣٤ ﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنْنَاهُ ﴿ ٣٥ ﴾ جَعَلْنَاهُمْ أَتْكَارًا ﴿ ٣٦ ﴾ عُرًا أَزْرَابًا ﴿ ٣٧ ﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿ ٣٨ ﴾ [الواقعة : ٢٧-٣٨].

وفي سورة الصافات وصف يقرب من هذا بجزئياته، والإطار العام للصورة التي تعرضها الآيات. قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿ ١١ ﴾ فَوَكَّاهُمْ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿ ١٢ ﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿ ١٣ ﴾ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿ ١٤ ﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿ ١٥ ﴾ بَيْضَاءَ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿ ١٦ ﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ [الصافات : ٤١-٤٧].

٣- وَصْفُ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ

عمد الوصف القرآني إلى إظهار نعيم اليوم الآخر عمداً، واستخدام الصور البيانية، والمشاهد الفنية، في إبراز ذلك النعيم، حتى يرى المتبع لآيات القرآن هذا النعيم، فأوشكت الجنة أن تكون قاب قوسين أو أدنى، بفضل دقة الوصف وروعة التصوير، ودلالة الإيحاء، فجنى الجنة دان من الأيدي، والحدود العين كاليافوت.

كما ظهر المؤمنون يرزقون، متكئين، لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً، بل يلبسون ثوباً من سندس وإستبرق، ويحلّون من أساور من فضة، يشربون الرحيق المختوم في صحاف من الذهب، وبأكواب تشتهيها الأنفس وتلذّها لها الأعين، هكذا بهذا الوصف الرخي الضاحك، المليء بالسرور والحبور، والنعيم المستديم وُصف المؤمنون في رحاب الجنة.

ويتجلى وصف نعيم أهل الجنة في سورة المطففين، حين يشير بيان القرآن إلى أن شراب أهل الجنة من رحيق، موصوف بأنه مختوم، وقد مازجه مسك. قال تعالى : ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَّحِيْقٍ مَّخْتُومٍ ﴿ ١٥ ﴾ خَتَمُهُ مَسْكٌ ﴿ ١٦ ﴾ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٥-٢٦].

ورأى قتادة والضحاك أن قوله تعالى ﴿ خَتَمَهُ مَسْكٌ ﴾ «إنما يشير إلى أن

عاقبته مسك»^(١). ويهدف هذا الوصف الموحى إلى أن يتنافس الناس على ذلك الشراب، وهذا الشراب الذي كثر الحديث عنه إنما هو شراب عال ويرى ابن كثير أنه «شراب أبيض مثل الفضة». كما يرى أن التسليم أشرف شراب أهل الجنة وأعلىه^(٢)، الذي قال تعالى في وصفه في معرض الحديث عن الجنة وبهائها: ﴿وَمِنْ أَمْوَالِهِمْ نَسِيمٌ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٨-٢٧].

نقل القرآن الكريم وصف نعيم الجنة بوسائل تصوير، وطرق تعبير، غلب عليها طابع الحسية والتشخيص: ففي سورة الرحمن وصف مُنْهَبٌ للمؤمنين وهم على فرش بطائنهما من إستبرق، والمعروف أن بطانة الشيء أخشن من ظهره، وفي ذلك إشارة إلى نعومة ونداوة الوصف، وإن كان هذا المنهج الوصفي يتخذ القرآن وسيلة بيانية فما ذلك إلا لجعل أمام الخيال سعة يتملى فيها الصورة، فها هو ذا المؤمن على فراشه الوفير، تدنو منه الأثمار في جنات الخلد. قال تعالى: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ قُرُوبٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

وفي سورة الصافات تعدد أساليب وصف النعيم، وجلّها يخلق جواً عباقراً بالإكرام، فالرزق معلوم، والفواكه مظهر له، وهكذا فإذا بالمؤمن في بيئة علوية في ملا خلقه الوصف الفني خلقاً في ذهن السامع، وقد أشار سيد قطب إلى جمال الشراب الذي يُعَلِّهُ سكان الجنة، مقدماً لهم في كأس من معين، بيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا تأثيم، قال: «وتلك أجمل أوصاف الشراب التي تحقق لذة الشراب وتنفي عقابيله، فلا خمر يصدع الرؤوس، ولا منع ولا انقطاع يذهب بلذة المتاع»^(٣).

قال تعالى واصفاً حال المؤمنين وهم غارقون في النعيم: ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿١١﴾ فَوْكَهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿١٢﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿١٣﴾ عَلَىٰ ثُرُورٍ مُّتَقَلِّبِينَ ﴿١٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٨٦..

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٨٧..

(٣) «في ظلال القرآن» لسيد قطب ٣/٥٣.

مِنْ مَّعِينٍ ﴿٤٦﴾ بَيِّنَةٌ لِّذَوِي السُّعْرِ ﴿٤٧﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٨﴾
[الصفات: ٤١-٤٧].

جاء في «حسن البيان»^(١) تفصيلات حول هذا الوصف لنعيم أهل الجنة، حيث قال مؤلف الكتاب إن الكأس الذي من المعين: «كأس فيه شراب على سبيل المجاز من إطلاق المحل على الحال، مَعِين: شراب أو نهر ظاهر للعيون...»^(٢).

ويرسم مشهد الوصف المادي لنعيم الجنة في سورة الزخرف، حيث يشار إلى الصُّحُف المذهبة التي يطاف بها على المنعمين زيادة في الإكرام ومبالغة في الوفاة، حتى الأكواب التي تقدم لهم هي بسبيل من هذه الصحف، وغاية الوصف أن ينفذ إلى وصف أثر ذلك الإكرام في النفوس، فهي تشبهه كما ورد في قراءة بعضهم^(٣).

بهذا المزج بين الصور الحسية من نحو والذوقية من نحو ثانٍ، يصف القرآن نعيم الجنة يغشى المؤمنين ما شاء الله، فهم خالدون لا يبغون عنها حولا، ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان: ﴿وَلِئَلَّكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢] وهكذا يبدأ الوصف حسيًا وينتهي معنويًا مجرداً، وبين هذين المحورين يرسم المشهد في خيال السامع وبصره مكتسباً الحركة والحياة. قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصُحُفٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٤) وَلِئَلَّكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿[الزخرف: ٧١-٧٢]. ومن متمات وصف النعيم بروز عنصر الإنسان الذي يخلع على الجو جمالاً وبهجة، عنصر الولد البريء الذي يطوف وهو في نقاء نفسه ونضارة منظره كأمثال اللؤلؤ المكنون. وهذا الوصف ليس هو للتقريب بل من قبيل بسط الحقيقة وتجسيد ما سيقع فعلاً. قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُمُرَانٌ لَهُمْ كَانَتْهُمْ لَوْلُؤُكُمْ﴾ [الطور: ٢٤].

(١) «حسن البيان» تأليف الأستاذ محيي الدين الخالدي.

(٢) «حسن البيان» لمحيي الدين الخالدي ص: ٢٥٢.

(٣) تفسير ابن كثير ١٣٤ / ٤.